

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَقْدِيم

يشتمل هذا الكتاب على ستة بحوث من المشرق العربى، وستة أخرى تقابلها من المغرب العربى. وتبدأ الأولى ببحث عن المثل العليا فى شعر الفروسية الجاهلية وكيف ارتبطت البطولة الحربية ببطولة نفسية أشاعت فى الجاهليين شمائل رفيعة، فبينما تحولت الجزيرة العربية حينئذ إلى ساحة حربية تقتتل فيها القبائل وتُشهرُ السيوف وتُصوبُّ الرماح وتُدقُّ الأعناق، إذ الأبطال يسمون عنم حولهم بمجموعة من الأخلاق والشيم النبيلة التى تملأ نفوس القبيلة عزَّةً، وهى شيم تتنوع بين احتمال الشدائد والصبر على النوائب وغوث المهوف والتغلب على صغار النفس وكبح الشهوات. وبذلك تعانقت من قديم بطولة السيف مع بطولة النفس التى تشيد بالخلق القويم والعزة وصيانة الشرف.

ونعرف من قديم صوراً كثيرة قصصية وغير قصصية من الأدب العربى المقارن تمثِّل فيها الأدب العربى فنوناً وأنواعاً وأفكاراً هندية وفارسية ويونانية، مما أتاح للجاهليين بعض أقاصيص عالمية وأخرى خرافية من حكم وأمثال على ألسنة الحيوان والطير ككتاب كليلة ودمنة، وعلى ضوئه كتب سهل بن هرون قصصاً مشابهة. ودخلت فى النثر العباسى أجناس أدبيه

مثل التوقيعات كما دخلت حكايات ألف ليلة وليلة. ويطبَّق الجاحظ نظرية أرسطو في الفضيلة، وأنها تتوسط بين رذيلتين كفضيلة الشجاعة تتوسط بين الجبن والتهور، على جمال الأجساد في هجائه لأحد خصومه، كما يطبَّق أبو تمام فكرة التضاد على بنية الأشياء والأشخاص.

ونعرف ما للثقافة الشعبية من آثار عميقة في حياة البغداديين وأدبائهم وخاصة أبا حيان التوحيدى، وكيف تغلغلت بسبب المساجد وكثرة المكتبات ونشاط الوراقاة في كل علم ديني ولغوي وفلسفي فأتاحت لأبي حيان ثراء لغويًا وفكرًا موسوعيًا جعله يخلف وراءه ثروة من الكتب والرسائل تُعدُّ من الدرر الأدبية الرفيعة.

ونرى - بوضوح - الدور الذي قام به المتصوفة في جهاد أعداء الإسلام ونشره في أرجاء الأرض وهي تبطل ما يدعيه المستشرقون عن الصوفية من أنهم عاشوا عالة على المجتمع الإسلامي متخليين عن واجباته؛ وتثبت أنهم كانوا يتقدمون صفوف المجاهدين. وعرف العباسيون دورهم في انتصار الجيوش فبنوا لهم في حربهم مئات الرباطات لحرب الترك والروم. ونشطوا نشاطًا واسعًا ضد الصليبيين، وكثرت حينئذ المدائح النبوية لمحاربتهم. وتناكتسح التتار بغداد، ورأى الصوفية صعوبة ردِّ طوفانهم تغلغلوا في ديارهم حتى اعتنقوا الدين الحنيف. وبفضلهم انتشر الإسلام في الهند والملايو وأندونيسيا وجزر الفيليبين، وبالمثل انتشر في السنغال وغينيا وسيراليون ومالي وغانة ونيجيريا والكامرون والنيجر وتشاد والكونغو وكينيا والسودان.

ويتضح العمل العظيم الذي نهضت به مصر قديما في نشر الثقافة الإسلامية بالمغرب والأندلس، فانتشرت لها فيهما قراءة ورش، وعنها أخذت السيرة النبوية لابن هشام ومعجم العين للخليل وكتاب سيبويه. وتزدهر

الحركتان الأدبية والعلمية بها منذ الدولة الفاطمية ، وتتحول إلى دار كبرى لاستقبال علماء العالمين العربى والإسلامى وترفعهم إلى أعلى المناصب فى عهد الأيوبيين والمماليك ، وتسحق الصليبيين والتتار. وتخدم بها الحركتان العلمية والأدبية ، فى عهد العثمانيين ، وتعود إلى الازدهار منذ عهد محمد على ، وينقل أبنائها من خريجى المدارس العليا ومدرسة الألسن التى أنشأها رفاعة الطهطاوى العلوم الغربية إلى العربية. ولرفاعة اليد الطولى فى بناء الفكر المصرى الحديث ، فقد عرّف الشعب المصرى بالحضارة الفرنسية وبحقوقه السياسية. وتنهض مصر نهضة حضارية سديدة على رغم الاحتلال الإنجليزي. وتبوّئها الثورة المجيدة مكانة رفيعة بين العرب والأمم. ورافق هذه النهضة ازدهار للشعر والقصة والمسرحية تكتب فيه المجلدات ، وأصبح لمصر دور عالمى كبير فى جميع المجالات السياسية وغير السياسية.

وتواجه الثقافة العربية الثقافة الغربية فى ثلاث دورات ، دورة تترجم لها فيها ثقافات العالم وما يطوى فيها من الثقافة اليونانية وتتمثلها وتضيف إليها إضافات باهرة ، وتقود العالم حضاريا وعلميا ستة قرون من القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى إلى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى. والدورة الثانية من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى إلى القرن الحادى عشر الهجرى/السابع عشر الميلادى ، وفيها ترجمت أوروبا التراث العربى العلمى والفلسفى إلى اللاتينية ، وأكبّت جامعاتها عليه ، وأثار لهم مسالكهم إلى حضارتهم الغربية الحديثة. والدورة الثالثة منذ عهد محمد على ، وفيها نقلت مصر العلوم الغربية والحضارة الأوروبية. وجعل الإنجليز بأخرة من القرن الماضى تعليم العلوم فى المدارس العليا بالإنجليزية ، فوقفوا الحركة العلمية بمصر ، وعادت إلى النشاط مع نشوء الجامعات والمجمع اللغوى فى هذا القرن ، ووضعت طائفة كبيرة من المعاجم العلمية.

وتبدأ بحوث المغرب العربي الستة ببيان عقيدة الموحدين ومؤسسها محمد بن تومرت وكيف أنها تستمد من التشيع مبادئ الإمامة والمهدى المنتظر والعصمة والنظام الطبقي للدعاة، كما تستمد من المعتزلة مبدأ التوحيد المنزه لله عن الشبه بالمخلوقات، وبه سماوا موحدين، وادعوا على المرابطين - خطأ - أنهم مجسمة لغرض القضاء عليهم، واستمدوا من الاعتزال أيضا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ونقرأ عن دور الحضارة الأندلسية في تكوين الحضارة الإسبانية، ولم يكن للإسبان تراث حضارى ولا أدبى قبل نزول العرب بديارهم، وليس بصحيح ما يقال من أنه كان بالأندلس عامية عربية وعامية رومانثية إسبانية، والصحيح أنه كان بها عامية عربية دخلتها ألفاظ رومانثية. وقد أثرت العربية في إسبانيا بأزجالها وقصصها وما كان فيها من علوم الأوائل. وتتحول طليطلة - منذ استولى عليها ألفونس السادس - إلى دار ترجمة كبيرة للعلم والفكر العربيين، وتبلغ الترجمة فيها الذروة في عهد ألفونس العاشر وبعده، مما أثر في التكوين الحضارى لإسبانيا وأوربا.

ونرى في الأندلس - بوضوح - استقلال القضاء بحيث كان سلطان القاضى فوق سلطان الحاكم، وكان يردُّ شهادة أولى الأمر إذا لم تثبت عدالتهم، وكانت للقاضى الكلمة النافذة على الخليفة والحكام، فالجميع ينصاعون لأحكامه ويمثّل أمامه الخصم حتى لو كان خليفة. وبذلك كان سلطان القاضى فى الإسلام فوق كل سلطان. وكان نظام المحامين معروفا عندهم، وكانت هناك هيئة استشارية من الفقهاء يرجع إليها القاضى فى القضايا المعقدة.

ونعرف فى هذه البحوث المغربية قصة حى بن يقظان لمؤلفها الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل، وهى قصة طفل ألقى فى جزيرة مهجورة، وكيف أن

ظبية سمعت صراخه فحنَّت عليه ورعته ، وتنقل به ابن طقيل فى سبع مراحل كل مرحلة سبع سنوات ، وفى المرحلة الأولى تمهدته الظبية ، وفى المرحلة الثانية ماتت الظبية فشرَّحها وعرف أن القلب كان مصدر حياتها ، وفى المرحلة الثالثة عرف النار واستخدامها فى إنضاج الطعام ، وفى المرحلة الرابعة اتضح له عالم الكون والفساد ، وفى المرحلة الخامسة اتضح له العالم بقدمه وحدثه ، وفى المرحلة السادسة أصبح فيلسوفاً ، وفى المرحلة السابعة صار متصوفاً . والقصة تُرجمت إلى اللغات الأوروبية واستوحاها أدباؤهم فى قصص مشابهة . وفصلت القول فى مصادرها الإسلامية والتقائها بآراء ابن سينا سواء فى قدم العالم الزمانى لا الذاتى أم فى خلود النفس وأخيراً فى النزوع الصوفى والغناء فى واجب الوجود .

ونقرأ - بعد ذلك - ما لابن رشد من آراء بلاغية طريفة فى أبواب البيان من التشبيه والاستعارة والكناية ملاحظاً أن الأمم تستمد تشبيهاتها من بيئاتها ، وأن التشبيه ينبغى أن يكون بين أشياء متجانسة ، وأن الاستعارة المكنية لا تقوم على التشبيه وإنما على بث الحياة والأفعال فى الأشياء . ويلمُّ بالاستعارة التمثيلية المتصلة بالأمثال ، ويعرض لصور من الكناية . وكل ذلك لم ينتبه إليه أصحاب البلاغة العربية . وينفذ إلى عرض مشاهد كلية فى الصور البيانية ، ويفصل الحديث فى مراعاة النظير ، ولا يقبل المبالغة المستحيلة التى تخالف المنطق والعقل .

ونقرأ أخيراً دراسة واضحة عن لسان الدين بن الخطيب كبير كتاب غرناطة فى القرن الثامن الهجرى وخصائصه الأدبية فى رسائله الديوانية وقيمتها التاريخية ، وتذكر رسائل له موجهة إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - للاستغاثة به ضد الأعداء ، كما تُذكر له رسائل شخصية بديعة ،

وكتب في التاريخ والتراجم والتصوف. وبرع في وصف رحلاته في إمارة
غرناطة والمغرب الأقصى وهي أشبه بمقامات. وكان يُعنى دائما باصطفاء
لفظه وعذوبة جرسه مازجا بين الأسلوبين المسجوع والمرسل بحيث يروق
السامع والقارئ. ويُعدُّ في الطبقة العليا من كتاب الأندلس. والله ولي الهدى
والتوفيق.

القاهرة في ١٥ أغسطس ١٩٩٨

شوقي ضيف